الثقافة مقاربات ومفاهيم

الاستاذ :احمد عاشوري

-ملخص:

في هذه الورقة نتكلم عن الثقافة من خلال مقاربات علمية سوسيولوجية وأنثربولوجية وكذلك نبحث في أصولها ومفاهيمها.

تمهيد:

لا زالت مسألة الثقافة تعرف جدلا واسعا، فهي من المسائل الراهنة ليس على المستوى الفكري فحسب بل وحتى على المستوى السياسي، وهي وان عدت في صلب تفكير العلوم الاجتماعية فإنها لا تقتصر على هذه العلوم فقط،ولذلك تحظى اليوم بقبول واسع على الرغم من أنها لا تسلم أحيانا من بعض الالتباسات، ليس بالمستطاع أن نعرض كل الوجهات التي استخدمت من مفهوم الثقافة لا سيما في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، لذلك سنركز على أهم المفاهيم التي تناولت هذه المسألة ، لما تملكه من نفاذ وقدرة على الإنباء بأنماط المنطق الرمزي الفاعلة في العالم المعاصر1 .

على الرغم من أن كلمة ثقافة كلمة معقدة لأنها كمفهوم لا تنطبق إلا على ما هو إنساني ، فنحن نعيش في عالم نكاد لا نعرفه لما فيه من تنوعات ثقافية لم تسلم منها الهوية الذاتية للفرد، لهذا يحسن بنا أن نوضح منذ البداية بعض المقاربات المتنوعة لظاهرة الثقافة، حيث لكل منها محددات وتداعيات بل حتى مناهج وتقنيات خاصة للنظر والتحليل2، ولعل أهم تلك المقاربات :

1_ المقاربة الأنثربولوجية :

والذي من روادها الانجليزي **إدوارد تايلور (Edward Taylor) (1832-1917)**، وله في هذا كتاب "الثقافة البدائية"،هذ ه المقاربة ستعرف تطورا هائلا واضطراري تبعا لتطور النظريات وستكون لها أربعة اتجاهات مهمة وهي على النحو الآتي:

أ- **مقاربة من زاوية التاريخ الثقافي:** ورواده **بواز (Franz Boas) وهرسكوفيتش (Herzkowiz)** الذي ألح على الاستمرارية التاريخية في الثقافة ودرس خصوصا عملية المثاقفة، ناهيك عن أن التاريخ يشكل مرجعية أساسية في فكر الإنسان.

ب- **مقاربة من خلال علاقتها بالشخصية** ويظهر هذا في أعمال **روث بيندكت (Ruth Benidict) ومارغريت ميد (Herbert Magaret Mead) وسابير (Sapir) ولينتون (Ralph Linton)**، وتركز في الأساس على مجموعة القيم التي يتوق مجتمع حصين إلى ترسيخها في الأفراد المنتمين إليه.

ج- **مقاربة من زاوية نظريات الاتصال الحديثة**، منطلقة أساسا من النموذج اللساني وأحس معبر عنه وممثل له أعمال **كلود ليفي ستروس (Claude Levi Strauss).**

د- **مقاربة من خلال التحليل الوظيفي** ورائده دون منازع **مالينوفسكي (Malinowski)**، الذي يعد من أكثر العلماء البريطانيين الذين تحدثوا عن الثقافة، هذا نتيجة تأثره بالمدرسة الأنثربولوجية الأمريكية التي اهتمت بالثقافة من خلال دراستها للعادات والعرف والتقاليد، وكل ما يدخل في مكونات الثقافة 3.

كان سؤال انطلاقها لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة،ومنه حاولت الأنثربولوجيا الثقافية البحث في جذور وأصول الثقافة بدايتها نشأتها تطورها، على عكس الأنثربولوجيا الاجتماعية التي انصب اهتمامها على العلاقات والقوانين والنظم والأبنية الاجتماعية ووظائفها، وكان أحسن ممثل لها **رادكليف براون (Radclieff Brown)**، الذي بدا غير مكترث كثيرا بالحديث عن الثقافة، وعمل على تكوين مدرسة خاصة به يخضع فيها أتباعه وتلامذته وزملاؤه إلى حماية هذه المدرسة الأنثربولوجية البريطانية ،لذلك عارض بشدة كل جديد ،خاصة إذا كان قادم من المدرسة المنافسة وهي الأمريكية.

هذه الأخيرة استطاعت بفضل جهود الكثير من العلماء أن تطرح مقاربة أنثربولوجية للثقافة، يظهر ذلك جليا في أهم علمائها، فعلى سبيل المثال مؤلف **روث بنيديكت (Ruth Benidict)** "أنماط الثقافة "**كليفورد غيرتز" (Clifford Getz)** تأويل الثقافة" وغيرهم، هذا لا يعني أن المدرسة البريطانية الأنثربولوجية لم يكن لها إسهام في مسألة الثقافة، هذه الأنثربولوجيا التي استطاعت أن تقدم أرقى وأثمن

تعريف للثقافة، إننا نتكلم وفي بالنا وذهننا تعريف **إدوارد تايلور (Edward Taylor)** الذي برهن أن الأنثربولوجيا كانت الأقدر من كل العلوم الأخرى على تكوين معرفة دقيقة ومفصلة عن الثقافة ،يشهد على ذلك تعريفها الأكثر تداولا وقيمة وفاعلية ، بالرغم مما عرف عن التطور البطيء لمفهوم الثقافة ضمن المسار التاريخي، ليشهد في فترة تاريخية ما تطورا هائلا لأنه دخل ضمن المفاهيم الكلية، التي لا تقبل التجزئة، إلا إذا كانت هذه الأجزاء ترجع إلى هذا الكل المركب 4.

إننا نميل إلى القول، أن اقتصار الثقافة على تعريف واحد أو اثنين في مجال علمي كالأنثربولوجيا لهو إفقار لهذا المفهوم، حين نعلم بأن هذا المفهوم غني وطموح كذلك فتاريخيا كانت الثقافة تضاهي الطبيعة ،فكما لا يمكننا أن نتحدث عن شيء ما هو موجود في الطبيعة إلا عبر حديثنا عن الطبيعة نفسها ،فكذلك لا يمكن أن نتحدث عن شيء ما إلا داخل الثقافة ،وكأننا أما جدلية هيغل **(Frederich Hegel)**: "إن ما هو خاص هو عام، وأن ما هو عام هو خاص أيضا "5.

لا شيء يجعلنا نستنجد **بمالينوفسكي (Malinowski)**، إلا فكرته عن الثقافة التي تتحدد وتتجدد بشكل ما، فهو يرى مثلا أن الثقافة حقيقة قائمة بذاتها ويجب أن تدرس على هذا الأساس، فهي وحدة عالية التنظيم مقسمة إلى ناحيتين رئيستين مجموعة من الفنون العلمية ونسق من العادات، كما ينظر إليها بعيدا عن التفسيرات التطورية والانتشارية مركزا فيها على وظيفتها كجهاز شرطي يعمل من خلال التمرين في المهارات والمعايير على إدماج الطبيعة والتربية، ولا يستطيع الإنسان أن يعالج مصاعبه وحيدا بل من خلال انتظامه في أسر ومجتمعات وقبائل تكون فيها السلطة والزعامة فيها منظمة ثقافيا، لذلك يرى **مالينوفسكي (Malinowski)**، أن الوحدات الحقيقية في الثقافة هي "النظم" التي هي عبارة عن مجموعات من وجوه النشاط التي تنتظم حول حاجة معينة ،بمعنى أوسع هي جماعات من الناس موحدين لمتابعة نشاط معين، ومن خلال توحدهم المستمر ينشأ التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد وغير ذلك من العناصر الثقافية 6.

لاحظ بعض الدارسين كالسيد **حافظ الأسود** في كتابه "**الأنثربولوجيا الرمزية**"، أن الأنثربولوجيا البنيوية عند **كلود ليفي ستروس (Claude Levi Strauss)** تنبني على مبدأ أساسي هو العلاقة بين الطبيعة والثقافة، ويتمثل هدف الأنثربولوجيا البنيوية في الوصول إلى المعاني العميقة واللاشعورية

المكونة لجوهر الثقافة باعتبارها مجموعة من الرموز والإشارات، فما يعتقده **ليفي ستروس** هو أن المجتمع يعبر رمزيا عن عادته ومؤسساته، بالمقابل السلوكيات الفردية ليست رمزية بذاتها ،ولئن كانت المؤسسات الاجتماعية في كل مكان، فإن الإنسان ذاته في كل مكان، و**لليفي ستروس** شعور قوي بتجزئة الإنسانية إلى ثقافات مختلفة، هذه حقيقة كل ثقافة أنها تحمل الاختلاف والتمايز، وربما كانت مقولة **جان نويون (Jacques Nouillon)** أحد دارسي **ستروس** مهمة عندما يقول بان اكتشاف القبر هو اكتشاف علاقة وليس حاجز، يمكن لهذا الاكتشاف أن يؤسس للرؤية ولكنه يوسع الآفاق .

2_ **المقاربة السوسيولوجية:** في الواقع لا نستطيع أن نغفل عن المقاربات الأخرى ، خاصة المقاربة السوسيولوجية للثقافة، ولأنها تعنينا بشكل أو بآخر هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تكاد تكون الأقرب مقاربة تحديدا لها، لما تسعى إليه من دراسة التشابهات داخل أنماطها، أو ما يطلق عليه الأنماط العامة للثقافة 7، وهنا يرى **مالينوفسكي (Malinowski)**، أن أي وصف لأي ثقافة يجب أن يقوم على معرفة نظمها الاجتماعية ويمكن تحديدها بتسعة نظم هي (الأسرية التربوية ،الأخلاقية ،الدينية الجمالية اللغوية ،الاقتصادية ،القانونية، السياسية ،ما يجعلها –وهي كذلك-عالم مشترك لدينا جميعا نعيشه مع بعضنا البعض، من خلال تلك الأشياء المشتركة التي تعد أعظم رابطة كما يقول بذلك أرسطو 8، غير أنه ومع التوسع الهام لدراسات علم الاجتماع في الولايات المتحدة وأوربا تغيرت نظرة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي إلى الثقافة ومستوياتها فأصبحت قابلة للدراسة، بعد أن كانت غير قابلة لدى بعض المحافظين والراديكاليين فحتى ولو ذهب **ريموند ويليامز (Raymond Williams)** معلقا على أن "الثقافة هي الأشياء العادية"، وهو تعليق وان بدا بسيطا وسهلا إلا أن له دلالات لا يمكن الغفلة عنها، وهنا نستعين بعبارة هيغل عندما يقول "لا وجود لشيء بين السماء والأرض إلا ويمكن مراقبته من منظار علم الاجتماع "9.

يعطي **بارسونز (Talcott Parsons)** باعتباره أحد علماء الاجتماعيين المعاصرين والمريض بداء التنظير للثقافة دورا محوريا في ظل مجال معانيها الرمزية المشتركة، فهو لا يعتبرها مجرد فضالة متبقية ،بل لها معاني تمكن من الانتقال من الخاص إلى العام، وبها يصبح التواصل داخل المجتمع أمرا ممكنا، ولئن كان من

الصعب إحداث قطيعة بين مفهومي الثقافة والمجتمع لأنهما وجه لعملة واحدة أو بتعبير **ايفانز بريتشارد (Evans Pritchard)** "إنهما تجريدان مختلفان لوجود واقعي واحد "،ربما هذا ما حدا ببارسونز إلى أن يرى نظريا على أن المجتمع الكائن هو في توازن متحرك حيث تصبح الثقافة شيئا يستحيل عزله بشكل منفصل عما حوله ، يقول "إن أي نظام ثقافي لا يؤدي وظائفه إلا كجزء من منظومة فعل متماسكة 10.

إذا كان الانثربولوجيون هم أول من نحتوا أو تكلموا وعرفوا هذا المصطلح الثقافة فإن علماء الاجتماع هم من كانوا أكثر استعمالا واستخداما له، في كثير من موضوعاتهم وتخصصاتهم ،نقول هذا بالخصوص عندما يتعلق الأمر بالمقاربة السوسيولوجية للثقافة، مقاربة تتيح لنا فهم أو معرفة على الأقل بعض خصائصها ولأننا أمام مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته أحيانا، وأحيانا أخرى لا شعورية فيه وبالتالي تشكل علاقة الإنسان من خلال سلوكه وأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه لذا يذهب بعض الباحثين الاجتماعيين في رؤيتهم للثقافة على أنها نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة.

لا شك أن مفهوم الثقافة عرف تغيرا إبستيميا من خلال النظريات السوسيولوجية المعاصرة، فها هو **سوركين (Peterim Sookin)** يعرفها على أنها مجموع أي شيء تم خلقه أو تعديله عن طريق النشاط الواعي أو غير الواعي، لا شيء أكثر من الأفراد يتفاعلون أحدهم مع الآخر، أو يؤثر أحدهم على سلوك الآخر، إن اهتمام سوركين من خلال تعريفه هذا يركز على التفاعل الاجتماعي الثقافي، حيث تكون الشخصية موضوع للتفاعل ومنه ، فالمجتمع مجموع الشخصيات المتفاعلة، وبه تكون الثقافة مجموعة من المعاني والقيم والمعايير التي تكون لدى الشخصيات المتفاعلة، وهذا إلى جانب الوسائل التي تحدد بطريقة موضوعية وتوصل هذه المعاني وتجعلها مقبولة اجتماعيا 11.

في نفس الإطار وفي كتابه الضخم "الديناميات الاجتماعية والثقافية الذي أصدره في أربعة أجزاء، يرى سور وكين أن العامل الذي يغير نمط الثقافة ينبعث من داخل الثقافة نفسها، لأن من طابع الثقافة أن تتغير ،فالتغير قانون كل حياة، لذلك كان التغير من الداخل قدرا مكتوبا على كل نسق ثقافي، فهو عبارة عن ذبذبة بين ما يسميه الثقافة الفكرية والثقافة الحسية وما يتوسطها من ثقافة مثالية أو ثقافة مختلفة12، فيما يرى **أوجبرن (Wiliam Ogburn)** أن الثقافة تشمل على الأشياء

المادية والنظم الاجتماعية، والطريقة الاجتماعية التي يسير عليها الناس في حياتهم، ولذلك كان التغير الثقافي هو التغير في هذه المنتجات والعامل الأساسي في التغير برأيه هو تراكم الصور الثقافية التي تترتب على الاختراع والاكتشاف، أي ما يسميه بالثقافة المادية والثقافة المتوافقة التي تشير إلى كل ما هو غير عادي في حياة الإنسان كالنظم الاجتماعية التي يجب أن تتوافق مع الجانب المادي عند حدوث أي نمو فيه13.

ترجع عدم متابعة وتحليل الأنساق الثقافية من قبل **بارسونز (Talcott Parsons)** بسبب التخصص الذي يراه من مهام الأنثربولوجيا الثقافية وهو تواضع علمي منه، غير أنه يرى في الثقافة مجموعة أنساق التفاعل الاجتماعي الإنساني، حيث يميز بين أنماط ثلاثة في الثقافة، الأول يتكون من أنساق الأفكار والمعتقدات، والثاني أنساق الرموز التعبيرية مثل الصور الفنية، والثالث أنساق التوجهات القيمية أو ما يسميها بالأنماط المتكاملة 14، والتي تكون فيها الشخصية أشد ارتباط بالثقافة المميزة لأي مجتمع، ومنه تكون الثقافة أهم محدد لنظام القيم الأساسي للمجتمع ، وهو ما عبر عنه **كاردنر (Cardner)ب** "كل نظام اجتماعي ثقافي يتميز بشخصية أساسية 15، ومهما قيل عن الثقافة سوسيولوجيا فإنها تشترك مع الأنثربولوجيا في إمكانية نقل الثقافة وتعلمها والمشاركة فيها، بل إنها ترتبط بالمجتمع ارتباطا عضويا من كل الجوانب كما عبر عن ذلك **ليفي ستروس (Claude Levi Strauss)**.

3- **<u>المقاربة الأيديولوجية:</u>** لا شك أن هناك مقاربات أخرى للثقافة منها المقاربة الأيديولوجية، حيث يعد مفهوم الأيديولوجيا من أكثر المفاهيم ذيوعا وشيوعا وجدلا، حتى ولو اعتبرها لويس **ألتوسير (Louis Althusser)** المعرفة الخاطئة بالواقع، أو تمثل خيالي لعلاقات الأفراد بالنسبة لشروط وجودهم الحقيقية، ويتمسك **ألتوسير** بأن مثل هذه المعرفة الخاطئة أو التمثل الخيالي ليس وعي زائف، إنه واقع مقلوب فقط 16، وعطفا على ما سبق، ارتبطت الأيديولوجيا كمفهوم بالماركسية ارتباطا وثيقا فعندما عدّ **هيغل (Frederich Hegel)** الثقافة مثل الأفكار هي العامل الرئيسي في حياة أي مجتمع، لم يجد هذا الطرح عند ماركس أي إقناع، ما جعله يركز بأفكاره على ضرورة التمرد على النزعة الروحية الغالبة على الفكر الألماني، وأن نستبدل بها أساليب لفهم الحياة بما فيها العوامل المادية والسياسية

والاقتصادية وهو ما جاء على ذكره في منهجه المادي التاريخي، من أن نشاط الأفراد الحقيقيين والظروف المادية التي يعيشونها إما أن تكون نتيجة لأنشطتهم ،وإما أنهم وجدوها قائمة كما هي 17.

أضف إلى ذلك ما كان يراه ماركس من أن المعتقدات والرموز الثقافية في المجتمع الرأسمالي هي جزء من البناء الفوقي المتمثل في الأيديولوجيا والوعي الزائف ويعكس هذا البناء نمط الإنتاج وعلاقاته ومن ثم يعكس ويكرس مصالح الطبقة البرجوازية المسيطرة 18، ومن هذا المنطلق تصير الثقافة محافظة من حيث سعيها إلى حماية مصالح الطبقة الحاكمة، ولا يصير التغير ممكنا إلا كنتاج للتغير في نمط الإنتاج وعلاقات الإنتاج، كما أن الأيديولوجيا عند ماركس ظاهرة اجتماعية تتجلى في مجال الأفكار والثقافة بشكل عام، وبالخصوص فيما يعرف بالثقافة السياسية، وهي كمصطلح تستخدم كمرادف لمفاهيم من قبيل انساق المعتقدات المشتركة العامة والقيم المطلقة والثقافة الشائعة، في حين يراها المنظرون الدعامة الأساسية للنظام الاجتماعي خاصة لدى المجتمعات الرأسمالية نقصد الأيديولوجيا .

عالم اجتماع آخر لا يقل عن ماركس، الذي رأى فيه بعض المفكرين عدم وجود فرص كافية لتعميق تحليله للعلاقة بين الأيديولوجية والهيمنة وجهاز الدولة، ورأوا بأن **أنطونيو غرامشي (Antonio Gramsci)** تحمل هذا العبء الثقيل في تطوير هذه الأفكار، حيث اكتسب مفهوم الهيمنة والأيديولوجيا أهمية خاصة في فكره أدى به إلى توسيع مفهوم الأيديولوجيا عندما جعلها تشمل العادات والتقاليد ونمط الحياة في المجتمع ،وكلها عناصر ثقافية ولم يحصرها فقط في نظام مفاهيم ،وأن نشر هذه الوظيفة الأيديولوجية يتم ويضمن من طرف المثقفين 19.

فيما يعتقد **عبد الله العروي** أن **ماركس ونيتشه وفرويد**، هؤلاء المفكرين الذين أقاموا بالفعل مفهوم الأيديولوجيا قد أرسوا في ذات الوقت نظرية في التأويل يقول "يقول ماركس أن الأيديولوجية تخفي مصلحة طبقية ويعلل قوله استنادا إلى تطور التاريخ، ويقول **نيتشه** أن القيم الثقافية أوهام ابتدعها المستضعفون لتغطية غلهم ضد الأسياد ويعلل هذا استنادا إلى قانون الحياة 20"، في حين يرى **بيير بورديو** أن المدرسة تعزز الثقافة المحافظة لخدمة الطبقات الاجتماعية المسيطرة سياسيا واقتصاديا وكذلك ثقافيا، وكخلاصة تتفق جل المقاربات إن لم نقل كلها بما فيها السوسيولوجية على أن الثقافة نتاج اجتماعي وإنساني، وهي مكتسبة ونامية

ومتغيرة، ودالة على سمات خاصة لجماعة دون غيرها ،لقد جعل مفهومها الواسع والفضفاض عرضة لتساؤلات مقلقة وصعبة لعل أهمها من أين تأتي الثقافة أمن المجتمع ؟أم من التاريخ أم من الدين ؟

4- <u>الثقافة الأصل والمفهوم:</u> نحن لا نقلل من قيمة ما أنجز حول هذا المجال من النظريات والرؤى، وما التنوع الثقافي إلا حقيقة سوسيولوجية سواء كانت بين مجال ثقافي أو آخر، أو حتى بين الثقافات الفرعية، وإذا كان لابد من العودة إلى الاستخدام الأول والأصلي للثقافة ،فإننا بذلك مرغمين لمعرفتها الولوج إلى الايتيمولوجيا، فالجذر اللا تيني لكلمة "**ثقافة**" **culture** هو يفلح **colere** .، ففي عام **1700**م أصبحت لفظا قديما في التعبير الفرنسي، لتظهر في أواخر القرن الثالث عشر متحدرة من **cultura**_اللاتينية التي تعني العناية الموكولة للحقل وللماشية وذلك إشارة إلى قسمة الأرض المحروثة 21، وهي بذلك تكون من حيث الأصل وتاريخ الكلمات كمفهوم مشتق من الطبيعة، إذ تعني في أحد وجوهها الزراعة أو العناية بالنماء الطبيعي، كما أنها تدل على أسمى وأرفع الأنشطة البشرية22 ، مصدرها في ذلك واحد هو الإنسان وتفاعله مع الواقع المحيط به الذي هو في حالة دائمة من التغير والتحول .

ليس في نيتنا أن نغرق مقالنا في تعريفات الثقافة والتي لا يمكن حصرها مكتفين بالتعاريف الأكثر تداولا والتي يمكن وضعها في اتجاهين، اتجاه ينظر للثقافة على أنها القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والأيديولوجيات، واتجاه آخر يراها تتمثل في النمط الكلي لحياة أمة ما ،وكذلك في العلاقات الشخصية بين الأفراد وكذلك توجهاتهم 23، ولئن أدى اختلاف سياقات التناول لدى الدارسين في العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى الاختلاف في تحديد مفهوم الثقافة على رغم اتساع استخدامه، إلا أنه يحظى في الكثير من المرات بالاتفاق عندهم على الدلالة والمعنى نفسيهما كما أصبحت تشكل لهم هما حيويا يشغل بالهم لاسيما في العصر الحديث، إذ الثقافة ليست فقط ما نعيش به إنها أيضا والى حد كبير ما نحيا من أجله 24، لقد صارت في كل مكان ولم تعد ملكية خاصة لمجموعة من المتأدبين أو المثقفين إنها الآن في مقدمة المشهد .

يبرز تعريف **تايلور** للثقافة لأنه الأشهر والأكثر ذيوعا ،والذي يقول فيه "الثقافة أو الحضارة بالمعنى الاثنوغرافي الواسع هي كل مركب يشتمل على المعارف

والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع معين"25، هذا التعريف سمح لظهور تعاريف أخرى شبيهة في المعنى ولا تختلف عنها من حيث الدلالة، ولعل هذا ما جعل أحد علماء الاجتماع المحدثين وهو **روبرت بيرستيد** الذي ظهر في أوائل الستينيات أن يقدم تعريفا مبسطا حيث يعتبر الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في مجتمع 26، وكذلك لا يذهب تعريف **غي روشيه** بعيدا عن أهم عناصر الثقافة، وهناك من يعتبره أكثر شمولا وعمقا، طبعا بناء على تعاريف سابقة والتي أحصينا فيها حوالي مائة وستين تعريفا(**160**)، يقول **غي روشيه** "الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل، وهي طرق صيغت تقريبا في قواعد واضحة والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معا، من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة 27.

ومع منتصف القرن التاسع عشر شاع استعمال كلمة ثقافة عند جميع البشر، غير أن أوربا عرفت هذه الكلمة واكتسبت معنى فكريا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، معنى يعبر عن التكوين الفكري عموما وعن التقدم الفكري للشخص ،هذا المعنى لم يبق محافظا على نفسه سرعان ما تغير في أوربا نفسها، فالبريطانيون مثلا كان لهم مفهوم خاص بهم استعاروه من الأنثربولوجيا التي مثلتهم عن طريق **تايلور إدوارد** وطوره كثير من الأنثربولوجيين **كمالينوفسكي وكيلر وروث بنديكت** وغيرهم وكذلك فعلت الفلسفة الألمانية، ومع ذلك لا يمكن أن توجد الثقافة ويصبح لها حضور وديمومة إلا بوجود المجتمع و الأفراد، كما أنها تصبغ على هذا الأخير الصبغة الإنسانية، وإزاء هذا الاهتمام الاجتماعي والعلمي للثقافة يحاول كثير من العلماء لا في علم الاجتماع فحسب بل حتى في الأنثربولوجيا تحديدا لمفهوم الثقافة، هذه الكلمة المطاطية التي نسمعها كثيرا ونقرؤها دون أن يكون لدينا عنها معنى محددا ودقيقا ينفرد به الجنس البشري دون الأجناس الأخرى، إنها شيء إنساني

في دلالتها السيمانيطيقية مثلت كلمة ثقافة نقلة تاريخية إنسانية خالصة من حياة الريف إلى حياة الحضر، ولكن هذه النقلة الدلالية تحمل في طياتها مفارقة إذ يقال أن سكان الحضر هم المثقفون، بينما سكان الريف ليسوا كذلك 28، هذه

المفارقة بقيت أسيرة ميراث دلالي استعمل في زمن سابق ،أين كان مفهوم الثقافة لا يزال يعرف تشكله وتطوره، فهو لم يسلم من المعاني البائنة الاختلاف، هذا ما حاول على الأقل **ليزلي وايت** أن يوضحه في مقالته المشهورة "مفهوم الثقافة"عام **1959**، عندما أكد أن قضية الثقافة ليست فيما إذا كانت شيئا حقيقيا أو مجردا، بل القضية كل القضية هي في السياق الذي يجري فيه التأويل العلمي فعندما ينظر إلى الأشياء والأحداث في سياق علاقتها بالكائن الإنساني فهي تؤلف السلوك وعندما ينظر إليها ليس من خلال علاقتها بالإنسان بل علاقتها مع بعضها ببعض، فهي تصبح ثقافة 29.

أما في اللغة العربية، وبالتحديد في الخطاب العربي القديم لا نكاد نعثر على هذه الكلمة إلا في الفعل ثقف، جاء في لسان العرب ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة حذفه، ورجل ثقف وثقف: حاذق فهم ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم، وفي حديث الهجرة: وهو غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء والمراد به أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه 30، وهي في هذه اللغة تختلف عنها في اللغات الأخرى، وهذا ما وعته اللغة العربية بعد أن استطاعت أن تعتاد على مثل هذه المصطلحات الغربية الغريبة عنها وهو الأمر الذي جعل مفهوم كلمة الثقافة يتطور إلى أن أصبح مفهوما له دلالات معرفية خاصة وأبعاد سوسيولوجية متعددة، لا في اللغات الأخرى بل حتى في اللغة العربية التي اتهمت من ذويها بعدم الصلاحية، مع أنها قد تحتوي المعنى نفسه عند لغات أخرى مع الاختلاف في اسم الكلمة أو ترجمتها .

لذا قد يبدو الاستشهاد **بابن خلدون** في نظر البعض نوعا من إقحامه في موضوع أو ظاهرة هي بعيدة عنه ولا تعنيه، لكننا –هنا-لسنا نحن الذين نأتي على ذكره اعتباطيا فها هو **كليفورد غيرتز** يستدل على أن ما أسماه **ابن خلدون بعلم العمران** هو ما يمكن تسميته اليوم بعلم الثقافة والذي عرفه بأنه يتناول المجتمع البشري ومشاكله والتحولات الاجتماعية التي تتوالى في طبيعة المجتمع 31، ويشير **غيرتز** إلى مفهوم العصبية بالتحديد التي تجمع أفراد قبيلة أو سلالة أو شعب في علاقة متينة، وهو بالتأكيد لا يأخذ هنا مفهوم العصبية بمفهومها البيولوجي بل بمعنى الانتماء والولاء فالأسلوب الذي يسير الناس عليه في حياتهم إنما يعتمد على طبيعة الثقافة السائدة في المجتمع ،حتى ولو كانت هذه الثقافة قبلية أو بدائية .

إن المفهوم الذي صاحب كلمة ثقافة وكان أكثر التصاقا به ومرادفا له هو الحضارة وهو ينتمي إلى روح عصر التنوير وعقيدته حيث حاز نجاحا كبيرا أيضا في معجم القرن الثامن عشر، فهي حركة لا تكتمل ويتوجب دعمها لأنها تستحضر التقدم الجماعي لا الفردي فقط ،فالغرب بالنسبة للفيلسوف الألماني **أوزفالد شبيغلر** تخطى "**مرحلة الإبداع في الثقافة** "إلى مرحلة التفكير العلمي والرفاه المادي المسمى "حضارة"32، فميزة استخدام هذه الكلمة هي إحداث تصور جديد للتاريخ منزوع القداسة، بل هناك من اعتبرها بديلا عن الرجاء الديني وإغراق الفرد في الحياة المادية إلى درجة قد يغيب فيها أو يتخلى عن الحياة الروحية للإنسان بشكل ما.

نحا **كلود ليفي ستروس** نفس المنحى الذي أخذه **تايلور** حينما وضع أو استعمل التعريف الواحد نفسه للثقافة والحضارة، واعتبر أنه من الممكن أن تحل إحداهما محل الأخرى غير أن بعض علماء الاجتماع والأنثربولوجيا فرق بين الثقافة والحضارة والتي هي جملة المعارف النظرية والتطبيقية غير الشخصية وبالتالي تلك التي يعترف إنسانيا بصلاحيتها ويمكن تناقلها، وبين الثقافة على أنها جملة من العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التي تربط في خصوصيتها بمجموعة وزمن معين، هذا ما انتهى إليه تمييز مبتدع صيغة "سوسيولوجيا الثقافة "**ألفريد فيبر**33.

لا تبدو حاجتنا ملحة في تقصي كل مفردات الثقافة أو ما يتفق معها، ولا التمييز بينهم الذي قد يكون في الغالب مجرد تمييز وهمي، ولعل إصدار حكم مثل هذا يعود بالأساس إلى التعاريف المتعددة والمختلفة الذي حازها مفهوم الثقافة، ففي كتابه مرآة الإنسان، وفي فصل فيه سبعة وعشرون صفحة تمكن **كلايد كلهوكن** من تقديم تعريفات متعددة ومختلفة للثقافة نأخذ منها على سبيل المثال"الطريقة الكلية لحياة شعب "الميرا ث الاجتماعي الذي يكتسبه الفرد من جماعته "، طريقة تفكير وشعور واعتقاد "،" نظرية يقدمها عالم الأنثربولوجيا حول الطريقة التي يتصرف بها شعب ما "،"مجموعة يقينيات تهدف للتأقلم مع البيئة الخارجية ومع الأشخاص الآخرين على حد سواء "،"راسب من رواسب التاريخ"34.

إن هذه الأمثلة من التعريفات لا تعبر كلها عن مفهوم الثقافة، ودليل ذلك تشابهها حينا واختلافها أحيانا أخرى، فهو كما يقول عنه **كليفورد غيرتز** بأنه بالأساس هو مفهوم سميائي، حيث يذهب إلى ما ذهب إليه **ماكس فيبر** من أن

الإنسان –وهو أحد أهم عناصر الثقافة –هو حيوان عالق في شبكات رمزية ،نسجها بنفسه حول نفسه وبالتالي ينظر إلى الثقافة على أنها هذه الشبكات 35، ولذلك يبدو عسيرا علينا أن نحدد في النهاية أصل الثقافة، فماركس يذهب إلى أن الثقافة لها أصل واحد نشأت عنه، وهو العمل بتأثيره على الطبيعة، ويعني العمل عند **ماركس** الاستغلال وهذا معنى واحد من بين معان تضمنها قول حكيم مأثور عن **فالتر بنيامين** يفيد بأن كل وثيقة عن الحضارة هي أيضا سجل عن البربرية، ويذهب كذلك إلى أن الثقافة بعامة جاهلة نسبها إلى أبويها إنها مثل الطفل الذي يعاني عقدة أوديب36.

مهما كانت أبحاثنا عن سؤال أصل الثقافة إلا أنه يبقى سؤالا مفتوحا دون إجابة محددة، فبالنسبة لنا مهما كان أصلها فإنها تبقى منتج الإنسان، منتج يسقط عليه ذاته ويتعرف فيه عليها كما قال بذلك **جون بول سارتر**، حيث لا تستطيع أن تمثل إلا من طرف الإنسان، هذا الكائن الثقافي الوحيد تزيده الثقافة جمالية إنسانية ،فهي ليست واحدة بل كل ثقافة تشمل كثير من الثقافات، ولتبقى البداية والغاية التي ننشدها هنا هي نفس البداية والغاية التي انصرف إليها كثير من الباحثين، لا التقصي عن الأصل، هذا الأصل قد يخفي نفسه ليظهر لنا بشكل طبيعي ،كما سبق وأن قلنا ذلك في المقدمة العامة.

لا فائدة أن نكرر هنا كل تلك التعاريف المتعددة والأبحاث التي تناولت ظاهرة الثقافة التي تبقى خاصية تكوينية بيئية أو بمصطلح **بيير بورديو** المشهور الهابتوس **habitus**، المتمثل في نسق الاستعدادات المكتسبة وتصورات الإدراك والتقويم أي باختصار هو الموجه لسلوكيات الأفراد، لتبقى أحد أهم موضوعات البحث العلمي الذي يعنى بتحليلها وتنظيرها.

-تعاليق وهوامش:

1-ادوارد تي هول، **اللغة الصامتة** تر/ لميس فؤاد اليحيى، دار الأهلية للنشر والتوزيع الأردن ط1، ص31 .

2 - ريتشارد أليس، **نظرية الثقافة**، تر/ علي سيد الصاوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1997 ، ص103

3-ريتشارد أليس وآخرون، نفس المرجع، ص22.

4-ريتشارد أليس، وآخرون نفس المرجع، ص09.
5- تيودورف أدورنو، **محاضرات في علم الاجتماع**، تر/ جورج كتوره، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص98.
6- محمد عاطف غيث،**دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع**، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص ص107-108.
7-ريتشارد أليس وآخرون، نفس المرجع، ص ص10-11.
8-إميل بوترو، **العلم والدين في الفلسفة المعاصرة**، تر/ أحمد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ط1 1973 ص207.
9- جون سكوت، علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، تر/ محمد عثمان الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2009، ص ص145-146.
10- تيدورف أدورنو، نفس المرجع، ص ص89-90.
11- جون سكوت، نفس المرجع، ص145.
12- محمد عاطف غيث، نفس المرجع، ص ص118-120.
13-محمد عاطف غيث، نفس المرجع، ص122.
14- محمد عاطف غيث، نفس المرجع، ص 94.
15- محمد عاطف غيث، نفس المرجع، ص 111.
16-ريمون بودون وف بوريكو، **المعجم النقدي لعلم الاجتماع**، تر/ سليم حداد ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط1 1986 ، ص298.
17- ديفيد أنغليز وجون هوسون، **مدخل الى سوسيولوجيا الثقافة**، تر/ مها نصير، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، قطر، ط1 2013 ص ص 38-39.
18-عبد السلام علي نوير، **الاتجاهات المعاصرة في دراسة الثقافة**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، عالم الفكر، العدد01 ، 2011 ، ص08.
19- علي محمد المكاوي، **المسألة القيمية والمستقبل الدين والمعرفة والأيديولوجيا والمسؤوليات المشتركة**، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية مسقط مجلة التفاهم العدد 34 السنة 2011 ص127-128.
20- عبد السلام بنعبد ، **التراث والهوية دراسات في الفكر الفلسفي بالمغرب**، دار توبقال للنشر المغرب ط1 1987 ص56.
21- دنيس كوش، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، تر/ منير السعدي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ط1 مارس 2007 ص17.
22- تيري ايجلتون، **فكرة الثقافة**، ترجمة شوقي جلال الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة2012 ص13.
23- ريشارد اليس وآخرون ، نفس المرجع ص31.

24- تيري ايجلتون ، نفس المرجع ص168.
25-عبد الغني عماد **سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والاشكاليات من الحداثة الى العولمة** مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1 2006 ص 31.
26- ريشارد اليس وآخرون نفس المرجع ص129.
27- عبد الغني عماد نفس المرجع ص32.
28- تيري ايجلتون نفس المرجع ص 06.
29- كليفورد غيرتز **تأويل الثقافات** ترجمة محمد بدوي مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط1 2009 ص 109.
30- ابن منظور **لسان العرب** الجزء العاشر دار الفكر بيروت ط1 1410ه ص
31-كليفورد غيرتز نفس المرجع ص21-22.
32- عبد الغني عماد نفس المرجع ص33.
33- عبد الغني عماد نفس المرجع ص34.
34- كليفورد غيرتز نفس المرجع ص81-82.
35- كليفورد غيرتز نفس المرجع ص 82